العدد ٢٠١ - يوليو ٢٠١٥

السياسة الدولية

- الأمن الإقليمى بعد "الربيع العربى" — د. عبد المنعم سعيد
- فشل الدولة العربية وآثاره الوخيمة — عبد العظيم حماد
- الباحثون العرب بين إيران وتركيا — مصطفى اللباد

الإرهاب بين الأعلام الحُمر والرايات السود

د. وحيد عبد المجيد

- الدور الإقليمى المصرى .. والمسألة الإيرانية — عبد الله السناوى
- التطورات العسكرية للأزمة اليمنية — لواء د. طلعت موسى
- مبدأ أوباما وسياسته الشرق أوسطية — د. محمد كمال
- كيسنجر من "ويستفاليا" إلى "تويتر" — جمال أبو الحسن

الأمن العربى تحت التهديد (ملف العدد)

- خريطة معقدة لعوامل التهديد الأمنى — د. مصطفى علوى
- معضلات الأمن الإقليمى تتحدى العرب — سفير / محمد أنيس سالم
- تركيا .. وحلم إعادة إنتاج الإمبراطورية — د. محمد سعد أبو عامود
- هل تستمر الحروب المذهبية عقوداً؟ — أبو بكر الدسوقى

٢٠١

ملحق "اتجاهات نظرية"
الحدود
د. خالد حنفى (محرر)

ملحق "تحولات استراتيجية"
التكامل المأزوم
مالك عونى (محرر)

Al Ahram Newspaper
03315
6 221121 001699

السياسة الدولية

المحتويات

● الافتتاحية:

٦ "توازن الضعف" فى "النظام العالمى" .... د. وحيد عبدالمجيد

● الدراسات:

١٢ البعد الأمنى للاستعصاء التكاملى فى المغرب العربى .... عبدالنور بن عنتر

٢٤ المنظومة القيمية للنظام الدولى بعد الحرب الباردة .... د. عبدالناصر جندلى

● المقالات:

٣٨ الإرهاب بين الأعلام الحمر .. والرايات السود .... د. وحيد عبد المجيد

٤٦ ما بعد "الربيع العربى" .. الأمن الإقليمى فى الشرق الأوسط .... د. عبدالمنعم سعيد

٥٣ فشل الدولة العربية .. آثاره الوخيمة داخليا وإقليميا .... عبدالعظيم حماد

٥٦ خروج مصر إلى الإقليم .. السؤال الإيرانى .... عبدالله السناوى

٦٢ "الجماعة البحثية العربية" بين إيران وتركيا .... مصطفى اللباد

٦٦ طريق الحرير الجديد .. التعاون الصينى - العربى .... سليمان تشو ليه

٧٠ مبدأ أوباما وسياسته الشرق أوسطية .... د. محمد كمال

٧٤ الحركة الديمقراطية المصرية فى ضوء الخبرات الدولية .... د. عمرو حمزاوى

● ملف العدد: الأمن العربى تحت التهديد

٨٠ تقديم: الطائفية تهدد المستقبل العربى .. هل تستمر الحروب المذهبية عقودا؟ .... أبوبكر الدسوقى

٨٢ مهددات الأمن العربى .. خريطة معقدة .... د. مصطفى علوى

٨٦ الدول العربية فى مواجهة تحديات الأمن الإقليمى .... سفير/ محمد أنيس سالم

٩٢ إيران ومحاولات استعادة الحلم الإمبراطورى .... د. محمد السعيد عبدالمؤمن

٩٨ تركيا وحلم إعادة إنتاج الدولة العثمانية .... د. محمد سعد أبو عامود

١٠٢ التهديد الإسرائيلى فى مرحلة جديدة .... د. صبحى عسيلة

١٠٦ إثيوبيا .. وتهديد الأمن القومى العربى .... د. أيمن شبانة

١١٠ روسيا وأمن الشرق الأوسط .. بين الإرهاب وإيران .... سفير د. عزت سعد السيد

١١٦ الأمن النفطى العربى .. و"مافيا" التهريب .... أحمد الدرينى

● قسم خاص: المنتدى الاجتماعى العالمى: ماذا قدم؟ وإلى أين يتجه؟ ...... إعداد: كارم يحيى

١٢٢ بعد دورة تونس: مارس ٢٠١٥: المنتدى الاجتماعى العالمى .. إلى أين؟

١٢٨ لسنا أقوياء بدرجة كافية فى مواجهة التحديات العالمية .... حوار مع: جوستاف ماسياه

١٣٢ لا هيمنة للمنظمات الكبرى على المنتدى .... حوار مع: عبدالرحمن الهذيلى

٢٠١

السنة الحادية والخمسون
العدد الأول بعد المئتين
يوليو ٢٠١٥

● **قضايا السياسة الدولية:**

١٣٦ **تقديم:** مخاطر استخدام القوة بدون أفق واضح ..... **سامح راشد**
١٣٨ التطورات العسكرية للأزمة اليمنية ..... **لواء د. طلعت أحمد موسى**
١٤٢ أسباب تعثر الحل السياسى فى اليمن ..... **أحمد طاهر**
١٤٦ الاستراتيجية الإيرانية فى اليمن .. المكسب والخسارة ..... **رانيا مكرم**
١٥٠ كيف أدارت إيران والقوى الدولية المفاوضات النووية؟ ..... **محمد عباس ناجى**
١٥٤ التأثيرات الاقتصادية لرفع العقوبات عن إيران ..... **إبراهيم الغيطانى**
١٦٠ حدود المرونة الإقليمية فى العلاقات المصرية – المغاربية ..... **د. خالد حنفى على**
١٦٦ من "القاعدة" إلى "داعش" .. تحولات واسعة فى مشهد العنف ..... **محمد إسماعيل**
١٧٠ الإنفاق الدفاعى فى الشرق الأوسط لعام ٢٠١٤ ..... **أميرة البربرى**
١٧٦ تجليات أزمة أوكرانيا .. تحركات روسيا لمواجهة الضغوط الغربية ..... **سامى السلامى**
١٨٠ معضلة أوروبية .. جدوى الاقتراب الأمنى للهجرة غير الشرعية ..... **أحمد دياب**

● **مكتبة السياسة الدولية**

١٨٦ **تقديم:** تنظيم "الدولة الإسلامية" فى كتب أمريكية جديدة ..... **عمرو عبدالعاطى**
١٨٧ **مناقشة كتاب:** قراءة فى نظام هنرى كيسنجر العالمى ..... **جمال أبو الحسن**

مؤلفات أجنبية، مؤلفات عربية، مؤتمرات دولية

● **ملحق "اتجاهات نظرية":**

الحدود: التهديدات .. التأثيرات .. المواجهات ..... (المحرر) **د. خالد حنفى**
د. شادى عبدالوهاب، محمد بسيونى عبدالحليم، مروة صبحى منتصر
د. خالد شيات، د. عبدالوهاب عمروش

● **ملحق "تحولات استراتيجية":**

التكامل المأزوم .. معضلات التقارب الإقليمى وإعادة تشكيل العالم ..... (المحرر) **مالك عونى**
د. على الدين هلال، د. صدفة محمد محمود، د. أمانى سليمان
عبير ربيع يونس، سامى السلامى

الإرهاب بين الأعلام الحُمر.. والرايات السود

د. وحيد عبدالمجيد*

رغم أن مفهوم الإرهاب من المفاهيم المراوغة التى يصعب ضبطها علميا وإجرائيا، ويتعذر الاتفاق على تعريف محدد لها، فإن القدر المتيقن فيه يظل هو استخدام العنف المسلح لتحقيق هدف سياسى لا يتعلق بالمقاومة الوطنية ضد احتلال أجنبى. فقد أصبح التمييز بين الإرهاب والمقاومة موضع اتفاق واسع، وإن لم يكن كاملا.

فالإرهاب إذن هو فعل سياسى يستخدم فيه السلاح. وكونه سياسيا، يعنى تمييزه عن العنف المستخدم فى مختلف أشكال الجريمة المنظمة. وهو بهذا المعنى، يستخدم لأهداف سياسية متعددة ومختلفة. وقد عرف العالم الحديث أنواعا عدة من الإرهاب يمكن التمييز بين أهمها على مستويين، أولهما: مستوى القائم بالإرهاب، أو من يمارس الفعل السياسى المسلح. فقد يكون الفاعل منظمات وحركات تستخدم العنف ضد السلطة، وقد تكون السلطة نفسها هى التى تمارس الإرهاب ضد معارضيها أو ضد شعب آخر تغزو قواتها أرضه أو تحتلها.

أما المستوى الثانى والأخير الذى يعنينا فى هذه المقالة، فهو اتجاهات المنظمات أو الحركات التى تمارس العنف المسلح لأهداف سياسية، والتمييز بين ما يرتبط باليسار الأكثر تشددا، وما ينتمى إلى التيارات الإسلامية الأكثر تطرفا. ولما كان النوع الأول من المنظمات يرفع أعلاما حمرا، بينما يقاتل النوع الثانى منها تحت رايات سود، فقد استخدمنا هذين اللونين سبيلا للتمييز بينهما.

ورغم أن الإرهاب ذا الرايات السود هو السائد الآن، بعد أن كانت الأعلام الحمر عنوانه الرئيسى فى منتصف القرن العشرين وحتى نهاية سبعينياته، فإن هذه الأعلام لم تطو تماما. ولكن انحسار المنظمات التى تحملها، مقابل توسع تلك التى ترفع الرايات السود، يجعل اهتمام الإعلام محدودا بالعمليات المسلحة القليلة التى ينفذها ما بقى من حركات متشددة ذات مرجعية يسارية.

ولذلك، لم يعرف معظم الناس فى العالم شيئا عن آخر عملية لـ "الإرهاب الأحمر" حتى كتابة هذه المقالة، وهى التى قامت بها "الجبهة الثورية لتحرير الشعب" فى اسطنبول فى ٣١ مارس٢٠١٥. وكانت هذه عملية مزدوجة شملت احتجاز قاض (قتل إثر إصابته برصاصة أثناء محاولة قوات الأمن تحريره)، واقتحاما مسلحا لمقر حزب العدالة والتنمية الحاكم. وقد أنشئت هذه الجبهة فى مطلع تسعينيات القرن الماضى، أى فى مرحلة هبوط الأعلام الحمر، وصعود الرايات السود. وتوجد روايات مختلفة حول طبيعة علاقتها بالجناح المسلح لـ "جبهة التحرير الشعبى الثورى"

(*) رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية.

التى أسست فى منتصف السبعينيات بقيادة دورسون كاراناس بهدف (شن حرب ضد الهيمنة الإمبريالية على تركيا، وتحقيق الاشتراكية). ولا يزال مسلحو الأخيرة "جبهة التحرير الشعبى" على عهدهم. ورغم التراجع الشديد فى نشاطهم، فقد تمكنوا من تنفيذ هجوم انتحارى ضد السفارة الأمريكية فى أنقرة فى يناير ٢٠١٣، وقالوا -فى بيان إعلان المسئولية عن هذا الهجوم- إنهم يستهدفون (الولايات المتحدة التى تقتل شعوب العالم، وتذل الشعب التركى، وتجعل بلاده وكرا لمؤامراتها).

أولا- أصول العنف السياسى المسلح فى العصر الحديث:

تعود فكرة العنف السياسى فى أول تجلياتها الحديثة وأكثرها وضوحا إلى الثورة الفرنسية (١٧٨٩) التى تعد أول ثورة شعبية، ومن ثم أُم هذا النوع من الثورات فى التاريخ الحديث. وكانت ثورة تحررية استهدفت تحرير الشعب عموما، والبرجوازية الصاعدة خصوصا، من هيمنة السلطة الارستقراطية الظالمة، وقهرها، وغلقها للمجال العام السياسى والاقتصادى.

ولم تكن للثورة الفرنسية على هذا النحو أية علاقة باليسار، أو أى اتجاه فكرى أو سياسى آخر، وإن عُد اندلاعها تعبيرا عن أول انتصار للأفكار الليبرالية التحررية، والتنويرية، والتقدمية التى تراكمت منذ بداية القرن السابع عشر. ولكن بعض الممارسات العنيفة التى وقعت فيها، وتواصلت فى موجاتها الكبيرة بعدها، خاصة فى ثورتى ١٨٤٨ و١٨٧١، وضعت أساسا لمفهوم العنف الثورى، الذى قام قطاع من اليسار المتشدد بتطويره نوعيا بعد ذلك.

فقد شهدت تلك الثورة عنفا بدأ محدودا ومعبرا عن تراكم طبيعى للغضب فى أوساط قطاعات واسعة من الشعب، بعد أن ظهرت مقدماته فى العام السابق عليها نتيجة التدهور الشديد فى الوضع الاقتصادى والاجتماعى، وحدوث صراعات ذات طابع طبقى فى بعض المناطق الريفية. وقد استهدف العنف المواكب لاندلاع الثورة أكثر مراكز السلطة دلالة على القهر، وفى مقدمتها سجن الباستيل، الأوسع شهرة فى التاريخ. ولكن قدرا معتبرا من هذا العنف مارسه فلاحون معدمون، ومستأجرون للأرض، حين هاجموا قصور النبلاء (الإقطاعيين) فى كثير من الأرياف، فيما سماه بعض المؤرخين "ثورة الفلاحين". وقد حدث مثل هذا العنف التلقائى بدرجات متفاوتة فى مختلف الثورات الشعبية التحررية التى توالت فى العالم منذ ذلك الوقت.

ولكن ما حدث فى الثورة الفرنسية، بعد ثلاث سنوات على اندلاعها، كان نوعا مختلفا من العنف، اتسم بأنه منظم جزئيا لتحقيق هدف سياسى محدد. فعندما بلغ الصراع ذروته، وصعّدت القوى المضادة للثورة هجومها باستهدام خليط من القوة، والتحايل، والخداع، والدعم الإقليمى (من جانب الملكيات التى أقلقتها ارتدادات الثورة الفرنسية فى بعض البلاد الأوروبية)، وأخذت الأوراق تختلط وتتداخل، لجأ بعض الثوار إلى مناشدة الشعب للدفاع عن الثورة والتسلح، حتى بالحراب.

غير أن الاتجاه الغالب فى أوساط القوى الثورية ظل محافظا على التزامه بالأطر الدستورية والقانونية، وسعيه إلى إقامة ملكية دستورية ديمقراطية، ورهانه على أن تتراجع القوى المضادة للثورة، ويستوعب الملك لويس السادس عشر الواقع الجديد. ولكن فشل هذا الخيار، الذى أبقى العنف محصورا فى نطاق أضيق، أدى إلى تغير ميزان القوى لمصلحة الجناح الثورى الأكثر تشددا، بدءا من أغسطس ١٧٩٢. وترتب على ذلك توسع فى العنف الثورى الذى بلغ مبلغا استدعى استخدام كلمة الإرهاب (لم تكن تحمل دلالتها الراهنة) للتعبير عنه.

ويصعب تحديد متى بدأ استخدام هذا التعبير على وجه الدقة. ولكن مؤرخ الثورة الفرنسية الأكبر، جول ميشليه، استخدمه كما لو أنه تعبير مألوف، عندما تحدث عن حقبة الإرهاب فى هذه الثورة.

ورغم أن هذا الإرهاب بدأ منظما برعاية قطاع من الثوار، فإنه سرعان ما انفلت، واستهدف عددا معتبرا من الثوار أنفسهم، وهذا هو أصل فكرة أن الثورة تأكل أبناءها. ولم يستطع "اليعاقبة" وضع حد لهذا الانفلات عندما أدركوا أخطاره. فكان أن انقلب العنف الثورى، وقد صار إرهابا، على من شجعوه.

وكان هذا النوع من العنف أوسع نطاقا فى ثورة ١٨٧٠-١٨٧١ (الكومونة) التى اندلعت، إثر هزيمة قوات لويس بونابرت أمام بروسيا. فقد أدت تلك الهزيمة إلى إعلان الجمهورية الثالثة على أنقاض الإمبراطورية المهزومة، وتسليح الشعب لمواجهة قوات بروسيا، واستيلاء أطياف عدة من اليسار على السلطة، وإعلان تأسيس "الكومونة" فى أجواء اختلط فيها الصراع الطبقى بالحرب الإقليمية.

وقد أعيد إنتاج "العنف الثورى" الذى يتجاوز الحدود المعتادة فى معظم الثورات، ويعبر عن فائض القهر، والظلم، والكبت، حين يتحول إلى فائض غضب وانفلات، فى عدد من الثورات، مثل الثورتين الرومانية (١٩٩٠)، والليبية (٢٠١١) اللتين سيظل مشهدا قتل شاوشيسكو والقذافى بطريقة همجية معلمين بارزين من معالمهما. كما نجد مثله فى حركة المقاومة الإيطالية ضد الفاشية عبر إعدام الدوتش (موسولينى) فى أبريل ١٩٤٥، وتعليق جثته أمام محطة وقود لأيام، حتى يتأكد الناس من مقتله.

وهكذا، شهدت الثورة الفرنسية أول ظهور للإرهاب بمعناه الحديث، وبداية استخدام هذا المصطلح للدلالة على الفعل السياسى العنيف. ولا تزال ملابسات تلك المرحلة فى الثورة الفرنسية تثير جدلا دار بعض أهم جوانبه فى أوساط اليسار عبر مناظرات سبقت اتجاه قطاع محدود منه إلى اعتماد العنف المسلح طريقا لنضاله ضد الإمبريالية والرأسمالية.

وفى ظل الجدل الذى احتدم فى أوساط اليسار حول شرعية العنف الثورى من عدمه، حدث خلاف على تفسير ما ورد فى مقدمة فردريك إنجلز لكتاب كارل ماركس (الحرب الأهلية فى فرنسا) الذى يتضمن النداءات التى كتبها ماركس باسم (المجلس العام لجمعية الشغيلة الأممية حول الحرب الأهلية فى فرنسا). ولأهمية هذا الجزء من مقدمة إنجلز، نورد منه هذه السطور: (لقد أضحت باريس فى السنوات الخمسين الأخيرة، بفضل التطور الذى حدث منذ ثورة ١٧٨٩، فى وضع جعل من المتعذر أن تنشب فيها أية ثورة دون أن ترتدى الطابع البروليتارى. وعليه، فإن

البروليتاريا التى كانت تدفع دماءها ثمن النصر تقدمت بمطالبها بعد النصر. والعمال الذين قدموا هذه المطالب كانوا ومازالوا يحملون السلاح. ولذلك، كان تجريد العمال من السلاح هو أول المقتضيات بالنسبة للبرجوازية الحاكمة).

ورغم أن إنجلز لم يقصد هنا ما ذهب إليه أديب ثورى فرنسى كبير، شارك فى ثورة ١٨٧١ وما رافقها من حرب مسلحة، وهو جول فاليس، عندما كتب بمرارة (لم أكن أريد أن تتلطخ ثورتنا بالدماء. ولكن ما العمل؟، والثورة، كل ثورة، لا يمكنها أن تخلو من الصدام المسلح)، فقد فسر كلامه ذاك من جانب قطاع محدود من اليسار المتشدد بطريقة تبرر العنف الثورى المسلح، وتجعله الطريق إلى التغيير.

غير أن هذه المسألة ظلت خلافية طوال الوقت. ويمكن الإشارة -على سبيل المثال- إلى بعض ما تضمنته المناظرات المشهورة بين فلاديمير لينين، قائد الثورة البلشفية عام ١٩١٧، والزعيم اليسارى الألمانى، كارل كاوتسكى، الذى أعاد تفسير الماركسية بمنهج وضع الأساس للتيار الاشتراكى الديمقراطى فى أول نسخة له.

وشملت تلك المناظرات قضية تصفية معارضى الثورة البلشفية، وبعض من اشتبه فى أنهم يرفضونها، الأمر الذى وجده أنصارها طبيعيا، ليس فقط اقتداء بما حدث فى الثورة الفرنسية، ولكن أيضا بالنظر إلى الصدامات المسلحة الاجتماعية والسياسية فى روسيا فى الفترة بين ١٩٠٥ (الثورة الروسية الأولى) و١٩٠٧، ثم خلال الثورة الثانية (البلشفية)، والحرب الأهلية التى أعقبتها واستمرت حتى عام ١٩٢٢. ولكن كاوتسكى رفض تلك الممارسات، وحذر من إضفاء طابع إرهابى على الشيوعية. ومما كتبه فى هذا المجال مثلا: (لقد بدأ قادة البروليتاريا يلجئون إلى إجراءات متطرفة. وهذه إجراءات دموية .. إنها إرهاب).

ولكن الفرق كبير بين هذا النوع من الإرهاب الذى أدانه كاوتسكى، واعترض عليه ماركسيون آخرون رفضوا السياسات العنيفة لـ "سلطة البروليتاريا" السوفيتية، وذلك الذى تبناه اليسار الأكثر تشددا بعد ذلك فى منتصف القرن العشرين. فقد كان عنف السلطة البلشفية ضد معارضيها أقرب إلى الإرهاب السلطوى الذى يطلق عليه مجازا "إرهاب الدولة"، لأن ممارساته اعتمدت فى جانب منها على أجهزة هذه السلطة الناشئة حينئذ وأدواتها من ناحية، بينما كان بعضه الآخر جزءا من حرب أهلية امتدت لسنوات من الناحية الأخرى.

ثانيا- اليسار المتشدد .. و"الإرهاب الأحمر":

عرف العالم إرهابا منظما بنوعيه، المجتمعى والسلطوى، قبل الربع الثانى من القرن العشرين. ولكنه كان منظما بمعنى مرتب، أو مخطط، أو ممنهج، وليس بالمعنى التنظيمى الذى يرتبط بمنظمة، أو حركة، أو أية مجموعة منظمة فى إطار معين.

فلم يظهر العنف السياسى المسلح فى إطار تنظيمات أو منظمات إلا مع اتجاه قطاع محدود من اليسار ذى الخلفية الماركسية إلى هذا العنف، اعتقادا فى أن طريق النضال السلمى مسدود أو مغلق (وهو ما يجمعه مع تنظيمات العنف ذات الخلفية الدينية). وكان لتجربة الحرب الأهلية الإسبانية، التى دفع الجنرال فرانشيسكو فرانكو معارضيه إليها فى ثلاثينيات القرن الماضى، أثر كبير فى ذلك التطور، عندما عبر شبان يساريون من بلاد أوروبية عدة الحدود للالتحاق بهؤلاء المعارضين الذين كانوا خليطا من الجمهوريين، وأنصار الحرية، ودعاة العدل الاجتماعى. وكانت قصص صمودهم ملهمة بفتح آفاق مستقبل محتجز، وكسر المدار المغلق للحاضر المنكفئ على ماضيه الجامد.

ولا يدرك حجم الإلهام الذى قدمته تلك التجربة إلا من يعود إلى بعض أشعار الشاعر الإسبانى الكبير جارسيا لوركا، وبعض أعمال الأديبين العظيمين: الأمريكى أرنست همنجواى، والفرنسى أندريه مالرو، عن الحرب الإسبانية.

وبشىء من الاختزال، ربما يجوز دمج ركائز "الإرهاب الأحمر" فى ركيزتين اثنتين.

فأما الركيزة الأولى، فهى أنه لما كانت الرأسمالية، والإمبريالية التى بدا، قبل عولمة الاقتصاد، أنها أعلى مراحلها، مؤسستين على الاستغلال، والنهب، والظلم، والقهر، وتملكان من القوة ما لا يتيح هزيمتهما عبر العمل السلمى، "فلا بديل عن اللجوء إلى العنف فى مواجهتهما لإنقاذ العالم من شرورهما".

أما الركيزة الثانية، فهى أنه لما كانت الرأسمالية والإمبريالية تمثلان حاجزا تاريخيا أمام حقوق الطبقات الفقيرة، والشعوب المقهورة، والعدالة المفقودة، فهما غير أخلاقيتين بطابعهما، الأمر الذى يجيز استخدام أية وسيلة مهما تكن لتخليص العالم من شرورهما.

وليس هذا إلا تلخيصا لا يخلو من تبسيط لتنظير عميق ومعقد بدأ بعد تحول قطاع من اليسار بالفعل باتجاه العنف المسلح. فكان التنظير لـ "الإرهاب الأحمر" إذن لاحقا على بدايته، ومزودا إياه فى الوقت نفسه بمدد يستند إليه. ويكفى ذلك لاستنتاج أن هذا النوع من العنف ارتبط بظروف سياسية، واقتصادية، واجتماعية، قبل أن يجد فى تأويل بعض النصوص الماركسية التأسيسية، ونصوص أخرى مستندة إلى هذا التأويل، ما كان يبحث عنه للتعبير عن نفسه.

ومع ذلك، فقد أثير جدل حول ما إذا كانت النصوص المشار إليها هى مصدره، أم الظروف الموضوعية التى أطلقته، وجعلت بداياته سابقة عليها. وهذا جدل أثير مثله بعد ذلك، ولا يزال مثارا، بشأن العنف الدينى المسلح الذى سنعود إليه بعد قليل.

غير أن الجدل حول المصدر الأول للعنف اليسارى المسلح كان أقل مما هو دائر حتى الآن بشأن العنف الدينى المسلح، ربما لاختلاف طبيعة النصوص فى كل منهما. فالطابع الدينى للنصوص، التى يكسو بها العنف الدينى المسلح أفعاله، يضفى عليها، فيما يبدو، أهمية أكبر فى هذا الجدل، مقارنة بالنصوص ذات المرجعية الماركسية، وغيرها من الأدبيات اليسارية.

وتقدم قصة تشى جيفارا، أبرز أيقونات العنف اليسارى المسلح ورمزه الأسطورى، دليلا عمليا على أسبقية الظروف على النصوص فى هذا النوع من العنف، وربما فى كل نوع منه.

تخبرنا قصة جيفارا (١٩٢٨-١٩٦٧)، الذى نشأ فى أسرة ذات أصول أيرلندية - إسبانية تعيش فى الأرجنتين، بأنه كان منذ

صباه متمردا من النوع الذى يجوز تسميته "ثائرا بلا قضية"، أى ذلك النوع من الشباب ذوى التكوين المتمرد الذى لا يرضى بسهولة عن الأوضاع المحيطة به، ويحلم دائما بتغييرها.

ويتميز هذا النوع من الشباب بالشروع مبكرا فى اقتحام المجال العام عبر نشاطات تبدأ غالبا فى المدرسة والجامعة. وظهرت ميوله اليسارية التلقائية عندما تعاطف بشدة مع الجمهوريين، الذين خاضوا حربا أهلية ضد الملكية والرأسمالية فى إسبانيا، وهو بعد صبى صغير لم يتجاوز العاشرة إلا بقليل. كما كان عداؤه الفطرى التلقائى للنازية فى أوائل العقد الثانى من عمره مؤشرا على ميول تقدمية غذاها إدراكه بعد ذلك الآثار الاقتصادية والاجتماعية الفادحة لهيمنة الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية التى كانت حكوماتها التابعة حينئذ تسمى "جمهوريات الموز".

وأسهم تخصص جيفارا فى الطب، دراسة وعملا، فى توسع معرفته بالبؤس الذى عم منطقة شعر بانتماء عميق إليها، ومسئولية كبيرة عنها (تزوج جيفارا الأرجنتينى سيدة من بيرو، وحصل أطفاله على جنسية المكسيك، وأسهم فى النضال السلمى فى جواتيمالا، ثم شارك فى قيادة النضال الثورى المسلح فى كوبا، وقتل وهو يقاتل فى بوليفيا). فقد رأى بأم العين ما فعله النهب والاستغلال فى الفلاحين المعدمين. وازداد وعيه اليسارى الذى بدأ فطريا، ثم تطور عبر الاحتكاك بالواقع، خلال جولة شملت معظم بلاد أمريكا اللاتينية على متن دراجة بخارية. والأرجح أن جيفارا لم يعرف الأفكار الماركسية قبل أن يلتقى طبيبا آخر من بيرو، كان قد تأثر بها، هو هوجو بيسكى.

ويرى بعض من عرفوه عن قرب أنه ربما تأثر بـ "الدون كيشوتية" بما ترمز إليه من مثالية، وفروسية، وحلم، وجنون بمقدار ما تأثر بالماركسية، خاصة فى نظرته إلى مفهوم الثورة، بوصفها عملا إراديا، أى ذاتيا بالأساس.

وعندما اتجه إلى الماركسية، كانت أمريكا اللاتينية تعج بثورات عدة، بعضها عفوى عام، والبعض الآخر يسارى النزعة. وهو لم يستوعب، على الأرجح، التنظير اليسارى للعنف المسلح إلا عندما فاضت مشاعره ألما لما رآه فى الواقع، وسماه "الأخطبوطات الرأسمالية". وعندئذ، جاء انضمامه إلى كاسترو، الذى كان نضاله السلمى قد اصطدم بالقمع الذى مارسه نظام فولجنسيو باتيستا فى كوبا، فى لحظة أيقن فيها أن التغيير السلمى ليس ممكنا.

وأدى ما فهمه جيفارا من انتصار الثورة الكوبية إلى تثبيت هذا اليقين الذى دفعه لأن يمضى حياته كلها مقاتلا ضد الإمبريالية والرأسمالية، منتقلا من كوبا إلى الكونغو فى إفريقيا، ومنها إلى أمريكا اللاتينية مرة أخرى، حيث خاض معركته الأخيرة فى بوليفيا. فقد قبض عليه فى مطلع أكتوبر ١٩٦٧، وأعدم بدون محاكمة، بينما هرب بعض رفاقه عبر حدود شيلى، حيث التقاهم أنصار طبيب آخر كان يقود حركة يسارية صاعدة، وهو سلفادور الليندى. وقد دعمت تجربة الليندى -التى أحبطت فور وصوله إلى السلطة عبر الانتخابات عام ١٩٧٣- إيمان قطاع من اليسار بالعنف المسلح.

وهكذا، انتقل جيفارا من تمرد غاضب كان ممكنا أن يعتمد النضال السلمى، لو أن طريقه كان مفتوحا إلى العنف اليسارى المسلح، حين تبين أن هذا الطريق مغلق. ولم يقتنع جيفارا بهذا العنف فقط، بل صار أحد منظريه عبر كتابه "حرب العصابات"، الصادر عام ١٩٦٠. ويكتسب هذا الكتاب الفقير نسبيا أهمية من كاتبه أكثر من محتواه. فقد ثبت فشل المنهج الذى يضع الإرادة فوق العوامل الموضوعية، ويدعو إلى (خوض القتال قبل نضوج شروطه الموضوعية اعتمادا على بؤرة صلبة). وكان إصرار جيفارا على هذا المنهج سبب هزيمته فى بوليفيا، حيث أصر على خوض القتال، رغم رفض الحزب الشيوعى، وتحذيره من مغامرة فاشلة، واعتمد على مقاتلين من بلاد أخرى لا يعرفون حتى اللغة المحلية، فعجزوا عن التواصل مع الفلاحين الفقراء الذين ذهبوا لتحريرهم من الظلم والاستعباد.

ويعنى ذلك أن جيفارا لم يكن مطلعا على التجارب التى اعتمد فيها المقاتلون على حاضنة مجتمعية، ونظر لها ماوتسى تونج بعد ذلك عبر فكرة "السمك والماء"، التى تتلخص فى أن مقاتلى حرب العصابات الثورية يشبهون السمك الذى لا يستطيع العيش والسباحة إلا فى قلب الماء، أى فى مناطق تحتضنهم. كما لم يحسن جيفارا قراءة التجربة الكوبية نفسها، رغم أنه كان فى قلبها، ولم يقدر أهمية دور القوى المجتمعية التى كان تمردها هو العامل الذى حسم الصراع وأتاح لـ "حركة ٢٦ يوليو" انتصارا لم يكن ممكنا بدون هذا الدور.

ولذلك، لا يرقى كتاب جيفارا، رغم انتشاره الواسع، إلى مستوى أعمال أخرى فى هذا المجال، منها -على سبيل المثال لا الحصر- كتاب "الثورة فى الثورة" لريجيسى دوبريه، وكتاب "حرب المستضعفين" لروبرت فابر، وكتاب "حرب العصابات فى المدن" لكارلوس ماريجيلا، الذى يجوز أن نعده مقابلا لكتاب جيفارا الذى يركز على هذه الحرب فى الريف، ومكملا له فى الوقت نفسه.

ولم تكن أمريكا اللاتينية هى الساحة الوحيدة للعنف اليسارى المسلح الذى انتشر فى كثير من مناطق العالم بين خمسينيات القرن العشرين وسبعينياته، ثم تراجع، وهبطت أعلامه الحمر بالتوازى مع ارتفاع الرايات السود للعنف الدينى المسلح.

ولكن أمريكا اللاتينية كانت الساحة الرئيسية التى انتشر فيها العنف اليسارى المسلح أكثر من غيرها، وأحدث تأثيرا كبيرا فيها، يصعب بدونه فهم المد اليسارى السياسى الذى شهدته فى السنوات الأخيرة.

ومما يبدو مدهشا خارج أمريكا اللاتينية أن اثنين من رؤساء بلادها الحاليين كانا مرتبطين بمنظمات العنف اليسارى المسلح فى شبابهما، وهما دانييل أورتيجا، الذى ارتبط بمنظمة "ساندنيستا" التى تحولت إلى العمل السياسى السلمى فى نيكاراجوا، وديلما روسيف التى شاركت فى دعم بعض حركات العنف اليسارى المسلح فى البرازيل فى بداية حياتها. وهذا بخلاف حالة كوبا التى وصل فيديل كاسترو إلى السلطة فيها عام ١٩٥٩، عبر مزيج من العنف اليسارى المسلح، والنضال السياسى المدنى، حيث كان أثر الإضراب العام الشامل فى نهاية ١٩٥٨ فى حسم الصراع أكبر من العمل المسلح. كما كان أخوه

راءول، الرئيس الحالى، أحد أبرز قادة "حركة ٢٦ يوليو" الثورية المسلحة التى لم تفصح عن انتمائها اليسارى إلا بعد سنوات على إسقاط نظام باتيستا. كما أن رئيس أوروجواى السابق، خوزيه موخيكا، الذى غادر السلطة منذ شهور، بعد إنجاز اقتصادى وديمقراطى كبير، وأداء شخصى مبهر فى تواضعه وارتباطه بالفقراء، كان أحد قادة حركة "توباماروس" التى خاضت حرب عصابات طويلة، ثم أوقفت القتال مع بداية التحول الديمقراطى فى التسعينيات.

ومثلما تعد "توباماروس" إحدى أهم منظمات العنف اليسارى المسلح فى العالم، فإنه يُنظر إلى تجربتها بوصفها أنصع تعبير عن هذا النوع من العنف الملتزم بعدم استهداف مدنيين. وقد كتب الباحث الفرنسى آلان لايروس كتابا ممتعا عنها، ترجم إلى لغات عدة تحت عنوان (توباماروس من السلاح إلى صناديق الاقتراع)، صدرت طبعته الأولى عام ٢٠٠٩ عن دار روشيه.

ولا تقل أهمية حركة "ساندنيستا" التى حملت عند تأسيسها عام ١٩٦١ اسم "أوجستو ساندينو" الذى قاد النضال ضد التدخل الأمريكى فى نيكاراجوا فى ثلاثينيات القرن الماضى.

ومن المنظمات التى ذاع صيتها عالميا فى هذا المجال أيضا منظمة "الطريق المضئ" فى بيرو، وهى الوحيدة، بين منظمات العنف اليسارى المسلح فى أمريكا اللاتينية، التى لا تزال تحمل السلاح، ويحتمى الباقون من مقاتليها بجبال الأنديز.

وكثيرة، كانت منظمات العنف اليسارى المسلح التى لم يبق منها إلا تاريخها فى مناطق أخرى فى العالم. وكان أكثرها شهرة منظمات أوروبية وآسيوية لم تكتف بالأعلام الحمر، بل اختارت لنفسها أسماء من اللون نفسه، مثل "الألوية الحمراء" التى أقضت مضاجع الحكومات الإيطالية فى سبعينيات وثمانينيات القرن الماضى، واغتالت رئيس إحداها (ألدو مورو) عام ١٩٧٨، و"الجيش الأحمر الألمانى" الذى اشتهر أكثر باسم جماعة "بادر ماينهوف". وحذت بعض المنظمات الآسيوية حذوهما، وأكثرها شهرة الجيش الأحمر اليابانى "نيهون سيكيجون" الذى نشط فى الخارج، وضرب أهدافا إسرائيلية دعما لقضية فلسطين، أكثر مما كان له وجود فى الداخل.

ثالثا- "السلفية الجهادية" .. و"الإرهاب الأسود":

بخلاف العنف اليسارى المسلح، حيث يتفوق الاتجاه الذى يربطه بالظروف الموضوعية على الرأى الذى يرى أن الفكر هو مصدره الأول، يحتدم الجدل فى حالة العنف الدينى المسلح بين اتجاهين فى فهم نشأته، وتفسير سلوكه. أحد هذين الاتجاهين يربطه بالبيئة السياسية – المجتمعية، وظروفها الموضوعية، بينما يعيده ثانيهما وآخرهما إلى التطرف الدينى الناتج عن نصوص فقهية معينة.

يرى الاتجاه الأول أن الظروف التى يتجه فيها شبان إلى "الإرهاب الأسود" هى التى تدفعهم إلى البحث عن عقيدة حافزة لهذا التمرد، وميسرة للتعبئة، وأنهم يلجئون إلى نصوص متشددة يغلفون بما تتضمنه من فقه وفتوى تمردهم، أو يكسونه بها. أما الاتجاه الثانى، فيعتقد أن هذه النصوص هى المسئولة عن العنف الدينى المسلح.

ويفصل الاتجاه الأول بين تمرد الشباب الذى يتجه إلى العنف المسلح، وتيارات الإسلام السياسى المعتدل، بينما يربط الاتجاه الثانى بينهما، ويرى أن "الإرهاب الأسود" إنما هو امتداد لهذه التيارات، أو خارج من عباءتها.

ويذهب الاتجاه الأول إلى أن "الإرهاب الأسود" خرج من ظلم نظم الحكم، وعذاب السجون، بينما يعتقد الاتجاه الثانى أنه خرج من بطون كتب تراثية متشددة.

وإذا كان الاتجاه الثانى يكتفى بالسخرية من حب مقاتلى "الإرهاب الأسود" للموت سعيا للقاء "حور السماء"، فإن الاتجاه الأول يهتم بالبحث فيما يدفعهم إلى كل هذا الكره للأرض والحنين للسماء. ويرى هذا الاتجاه (الأول) أنه حين يشتد الظلم فى الأرض، ويبلغ مبلغا لا يمكن تحمله، أو عندما تسودها أوضاع يصعب قبولها، أو التكيف معها، فإن التعلق يزداد بما يقع خارجها، وتصبح السماء قبلة، حتى لو خلت من الحور.

ويتميز الاتجاه الأول بإدراكه أن الشهادة التى يُقدم عليها مسلمون ليست مقصورة على الإسلام، حيث وضعتها الأديان كلها فى مكان رفيع، وأن المسيحية هى التى طورت اللاهوت الأبرز فى هذا المجال الذى لا تُحصى قصصه فى تاريخ اضطهاد الإمبراطورية الرومانية للمسيحيين، بل إن كلمة "شهيد" مستمدة أولا من قصة تلامذة المسيح، بوصفهم شهودا عليه، ثم باتت تعنى من قتلهم الاضطهاد الرومانى، مثل القديسين بطرس وبولس اللذين تحمل كثير من الكنائس اسميهما.

وفى كل الأحوال، أخذ من حملوا الرايات السود، ومارسوا عنفهم تحتها مفاهيم، مثل: الجهاد، والحاكمية، والولاء والبراء، وتطبيق الشريعة، واستعادة الخلافة، وغيرها، من خلال أكثر تفسيراتها الفقهية غلوا، وأعادوا تأويلها بما ينسجم مع إيمانهم بالعنف المسلح، عندما خرجوا على الحكومات (وخرج بعضهم على المجتمعات أيضا) رافعين راياتهم السود، ومعلنين فشل التيارات الإسلامية المعتدلة، ومكفرين قادتها فى معظم الأحيان.

ولم تكن فكرة بناء تنظيمات تمارس العنف المسلح قد طُرحت على هذا النحو من قبل، حتى من جانب حزب التحرير الإسلامى الذى حمل لواء الدعوة إلى الخلافة منذ تأسيسه عام ١٩٥٣، رغم أنه أقام هذه الدعوة على تكفير الحكومات.

وكانت إحدى الأفكار التى وردت فى ثنايا بعض كتابات سيد قطب، خاصة فى كتاب "معالم فى الطريق"، عاملا مساعدا فى بلورة فكرة التنظيمات المسلحة بعد إعدامه، وهى فكرة "الطليعة المؤمنة". وهى لا تختلف فى جوهرها عن فكرة "الطليعة المتقدمة"، أو "طليعة البروليتاريا" لدى بعض التيارات الماركسية، والتى أعاد إسلاميون متشددون صوغها لتصبح "الطليعة المقاتلة".

وقد بدأت مقدمات هذا الميل إلى العنف الدينى المسلح فى مصر، ومنها إلى بلاد أخرى فى المنطقة وخارجها، فى منتصف ستينيات القرن الماضى، عندما شرعت مجموعات من الشباب فى السعى إلى تأسيس تنظيمات "جهادية". وتنطوى قصة أيمن الظواهرى على مغزى مهم فى هذا المجال. فقد اتجه الصبى الرقيق، سليل عائلتين عريقتين (الظواهرى وعزام)، والمتفوق فى دراسته، إلى التطرف، ومنه إلى الإرهاب "الجهاد"، مبكرا، حين

عمقت هزيمة ١٩٦٧ الغضب الذى كان قد بدأ يملأ جوانحه بسبب طريقة تعامل السلطة مع معارضيها.

لم يكن قد تجاوز عامه السادس عشر حين صار فاعلا فى إحدى الخلايا الشبابية السرية "التكفيرية" التى ظهرت للمرة الأولى فى ذلك الوقت. وشرح الظواهرى فى كتابه "فرسان تحت راية النبى" قصة هذا التحول، وأوضح كيف أثر إعدام سيد قطب فيه أكثر مما تأثر بكتاباته. فقد أضفى إعدامه على كلماته معانى لم تكتسبها كثير من كلمات غيره.

ويتضح من رواية الظواهرى كيف امتزجت آثار "انتصار" السلطة على معارضيها وسحقهم من ناحية، وهزيمتها وانسحاقها أمام العدو من الناحية الأخرى، فصدمت شبانا غاضبين، ودفعتهم إلى التمرد والبحث عن "طريق للنجاة". وكان هذا هو الطريق الذى أفضى إلى "الإرهاب الأسود". وشهدت مصر أولى عمليات هذا الإرهاب، بدءا من عام ١٩٧٤ (عملية الفنية العسكرية)، وتلتها السعودية، حيث وقعت عملية اقتحام الحرم المكى فى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ بقيادة جهيمان العتيبى، ومحمد عبدالله القحطانى.

وتضمنت تلك البداية رافدين، رفع أحدهما شعار الجهاد ضد السلطات الكافرة الظالمة، بينما دفع الآخر بكفر المجتمعات، ودعا إلى الهجرة منها استعدادا للهجرة إليها مجددا لـ "فتحها وإعادتها إلى الإسلام".

وإذا كانت نقطة البداية فى "الإرهاب الأسود" على هذا النحو هى الموقف تجاه سلطات كافرة وظالمة، أى ترتبط بعنصرين يمكن أن نعدهما -لغرض التحليل- متغيرين (الكفر والظلم)، فربما يكون البحث عن المتغير المستقل فيهما مساعدا فى الإجابة على السؤال الخاص بمسئولية كل من الظروف الموضوعية، والنصوص الفقهية فى ظهور هذا الإرهاب.

وبالعودة إلى ملابسات مرحلة النشأة فى منتصف ستينيات القرن الماضى، نجد ما قد يعد مؤشرا على أن الشعور بالظلم سبق الحكم بالكفر فى تلك المرحلة. وإذا صح ذلك، فإن الظلم يصبح هو "المتغير المستقل"، أو الدافع الأول إلى تمرد دفع إلى البحث عن راية براقة يقف تحتها، ويستظل بها. فكانت النصوص الفقهية الأكثر انغلاقا وتشددا هى تلك الراية.

وربما تكون حالة شكرى مصطفى، الذى تولى قيادة أول تنظيم تكفيرى، بعد أميره الأول على إسماعيل، وهو "جماعة المسلمين" التى عرفت إعلاميا باسم "التكفير والهجرة"، أكثر دلالة فى هذا المجال من حالة أيمن الظواهرى. فعندما تساءل مصطفى، الذى تختلف الروايات حول سبب القبض عليه فى منتصف الستينيات، عما إذا كان من يعذبونه وغيره من المعتقلين بطريقة وحشية يعدون مسلمين حقا أم لا، كان لسان حاله يقول -دون أن يقصد- إن ظلم السلطة قد يدفع البعض إلى التمرد عليها، بل تكفيرها. فقد دفعه الظلم الذى وقع عليه إلى البحث عن تفسير، فلم يسعفه عقله المحدود البسيط، الذى أغلقه نظام تعليم متخلف، إلا بتفسير ساذج، هو أن هؤلاء الظالمين لا يمكن أن يكونوا مسلمين. وربما كان مثل هذا السؤال يدور فى أذهان أعداد بدأت قليلة من الشبان، الذين جمعت بينهم علاقات صداقة ومعرفة فى مجموعات مختلفة، عندما خلصوا إلى ما سبقه إليهم أعداد أكبر فى مناطق أخرى من العالم، ولكنهم حملوا مرجعية مختلفة؛ هى أن طريق العمل السلمى مغلق، وأن العنف المسلح هو البديل.

وأيا كان الأمر فى هذا المجال، فقد انتشر الرافد الجهادى للعنف الدينى المسلح، بينما ظل نظيره التكفيرى (الذى يكفر آحاد الناس وليس فقط الحكام وسلطاتهم وأجهزتهم) محدودا.

واعتمد هذا الرافد على قراءة انتقائية فى جانب محدود من التراث الفقهى، لأنه لم يكن فى حاجة إلى أكثر من توجهات عامة، وعناوين صادمة، وشعارات براقة تؤدى الوظيفة الفكرية، أو النظرية، أو "الفتووية" للعنف، على النحو الذى تضمنه أول نص يعبر عنه، كتبه عبد السلام فرج فى نهاية السبعينيات تحت عنوان "الفريضة الغائبة".

ولم تكن السلفية التقليدية بالنسبة لـ "الإرهاب الأسود" إلا ساحة مفتوحة للتجنيد منها. فرغم أن توجهاتها تنسجم مع ما كان يبحث عنه من اتجهوا صوب هذا الإرهاب، فإنها تمنع الخروج على الحاكم، وتضع قواعد مختلفة للجهاد، وتحرم التعدى على الدم. وتعد قصة أسامة بن لادن "نموذجية" فى هذا المجال، فقد نشأ سلفيا تقليديا، ودأب على استخدام أمواله لدعم الدعوة، وظل كذلك لسنوات، حتى بعد أن ذهب إلى أفغانستان لدعم المجاهدين. فكان دوره فى البداية تمويليا وإنمائيا، إلى أن التقى أيمن الظواهرى هناك فى منتصف عام ١٩٨٦، ونشأت بينهما علاقة إنسانية عميقة.

واستطاع الظواهرى إقناع بن لادن بالتوجه الجهادى، فتحول من داعية سلفى إلى زعيم جهادى أخذ على عاتقه إعادة تنظيم المجاهدين، بعد انتهاء الحرب الأفغانية، الأمر الذى أسفر عن إعلان "الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين" فى فبراير١٩٩٨. ووضعت هذه الجبهة الأساس لتنظيم "قاعدة الجهاد" الذى ظل فى صدارة قوى "الإرهاب الأسود"، إلى أن سحب "تنظيم الدولة الإسلامية" المعروف إعلاميا باختصار اسمه السابق "داعش" البساط من تحته.

وهكذا، لم تكن هناك علاقة بين التوجه الجهادى المؤسس للعنف الدينى المسلح، والسلفية التقليدية. غير أنه عندما اتُهم التيار الجهادى الذى يمارس الإرهاب بالسطحية، وتغييب العلم الشرعى، وتغليب الحركة على الفكر، انتقى من السلفية التقليدية ما لا يتعارض مع جموحه العنيف، وألزم أتباعه بدراسة بعض الأدبيات ليتيقن له أن يسمى نفسه "السلفية الجهادية"، ويرد على منتقديه، قبل أن يتجه تنظيم "الدولة الإسلامية" إلى تهميش مسألة الفكر، بعد أن حقق من القوة والانتشار ما يجعل نقده لأسباب تتعلق بهذه المسألة غير ذى بال.

رابعا- العالم بين إرهابين:

بالعودة إلى ملابسات نشأة العنف المسلح، اليسارى والدينى، لا نجد اختلافا كبيرا بينهما، إذا أخذنا بالاتجاه الذى يعيد "الإرهاب الأسود" إلى الظروف الموضوعية، السياسية والمجتمعية، ويعدها العامل الأول وراء تمرد شبان وجدوا فى نصوص فقهية متشددة الراية التى يقاتلون تحتها. فما

"الإرهابان" على هذا النحو إلا تمرد على أوضاع قائمة يبحث عن راية يرفعها، ويقاتل تحتها، سواء كانت حمراء، أو سوداء.

وفى هذه الحالة، تصبح ظروف النشأة هى وحدها ما يجمع "الإرهابين"، اللذين يختلفان فى كل ما عدا ذلك تقريبا، أو معظمه. وفضلا عن المرجعيات التى تفصل بينهما، والأهداف التى يسعى كل منهما إليها، فهما يختلفان حتى فى فلسفة العنف الذى يشتركان فى استخدامه، خاصة العمليات الانتحارية.

فهذه العمليات ليست من اختراع "الإرهاب الأسود"، إذ كانت تنظيمات يسارية متشددة هى الأسبق فى استخدامها ضمن منظومة أدواتها لمواجهة الإمبريالية، والسلطات التى تعبر عن المصالح البرجوازية، وترتبط بعلاقات تبعية مع النظام الرأسمالى العالمى. كما لجأت بعض حركات التحرر الوطنى ذات التوجهات اليسارية وغيرها إلى هذا النوع من العمليات ضد قوات الاحتلال.

ورغم تشابه معظم أساليب العمليات الانتحارية وأشكالها فى ممارسات بعض تنظيمات اليسار المتشدد، الذى حمل راية تغيير العالم فى الربع الثالث من القرن الماضى، وتنظيمات العنف الدينى التى تتصدر المشهد منذ أواخر سبعينياته، فما أبعدها المسافة بين مفهوم هذه العمليات وفلسفتها هنا وهناك.

فالعمل الانتحارى لدى تنظيمات العنف الدينى يرتبط بفكرة الخلاص المطلق الذى يقوم على اعتقاد فى أن "التمكين للإسلام" هو السبيل إلى الخير من ناحية، وخلاص "المجاهد الاستشهادى" من آثام الدنيا، وانتقاله إلى أعظم مراتب الفردوس الأعلى من ناحية أخرى.

أما اليسار المتشدد، فقد نظر إلى العمل الانتحارى من خلال فكرة التحرر، حيث يصبح هذا العمل سبيلا إلى تحرير البشرية من القهر، والظلم، والاستغلال، وطريقا إلى حياة أفضل لن ينعم بها المنتحر الذى لا ينتظر مقابلا شخصيا لأعظم تضحية يقدمها إنسان، وهى التضحية بحياته. فقد اعتقد يساريون لجئوا إلى الطريق الخطأ لتحقيق أحلام مسحوقة بأن فى الحياة ما يستحق الموت من أجله، وأن عالما أكثر عدالة يمكن أن يولد على هذه الأرض بعد موتهم.

وبينما يمكن أن نعيد أصل مفهوم الانتحار لدى تنظيمات العنف الدينى إلى الدلالة الرمزية لقصص بعض الأنبياء الذين فضلوا الموت، أو كانوا مستعدين له، على التراجع عن رسالاتهم، نستطيع إرجاع أساس مفهوم الانتحار لدى اليسار المتشدد إلى الاحتفاء بالموت فى ساحة المعركة فى اليونان القديمة، حيث أطلق عليه "الموت الجميل"، أو "الموت النبيل". وليست قصة سقراط بعيدة عن هذا المعنى. فقد كان فى إمكانه أن يتفادى حكم الإعدام عندما أتاحت له المحكمة فرصة التراجع عن أفكاره التى حوكم بسببها، ولكنه اختار الموت، وكأنه يُقبل على الانتحار اعتقادا فى أن موته سيدعم أفكاره، ويفتح الطريق أمام تحرير العقل، بوصفه الركيزة الأولى لتحرر البشرية من مختلف أشكال الطغيان. وهكذا، تبدو المسافة الفكرية السياسية بين "الإرهاب الأحمر" و"الإرهاب الأسود" شاسعة، رغم تشابه معظم أساليبهما.

والحال أنه بينما أخذ العنف اليسارى المسلح فى التراجع، كان العنف الدينى المسلح يتوسع لأسباب، نكتفى منها هنا باثنين، لأنها تتطلب معالجة مستقلة. السبب الأول هو صعوبة إيجاد بيئات حاضنة للأعلام الحمر فى العالم الإسلامى الذى انتشر فيه العنف الدينى، حيث تتمتع الرايات السود بأفضلية ترتبط بأنها تنسب إلى الإسلام الذى يصعب على أى أفكار يسارية أو حداثية أن تنافسه فى منطقة لم تعرف من الحداثة إلا بعض قشورها. والسبب الثانى والأخير هو الاستعصاء الديمقراطى فى منطقتنا، بخلاف المناطق التى انتشر فيها العنف اليسارى المسلح. إذ أدت التحولات الديمقراطية فى أهمها (أمريكا اللاتينية) إلى إلقاء الكثير من منظماته السلاح، واندماجها فى العملية السياسية، ومشاركتها فى الانتخابات، وتحول كثير من قادتها وأعضائها إلى سياسيين فاعلين، وأعضاء فى البرلمانات، ووزراء، بل رؤساء لثلاثة من بلاد هذه المنطقة.

ورغم أن "الربيع العربى" حمل ترياقا مضادا لسم العنف الدينى المسلح، عبر فتح طريق التغيير السلمى، من أجل الحرية، والكرامة، والعدالة، فإن اجتثاث هذا السم يتطلب وقتا لم يتيسر فى البلاد التى تمكنت قوى الثورة المضادة من محاصرة "الربيع" فيها. كما وجدت هذه القوى فى العنف الدينى المسلح ما تريده فى محاولتها اقتلاع بذور الزهور التى جاء بها "الربيع" قبل أن تُزهر.

ومع ذلك، تظل رايات الأمل فى الحرية، والكرامة، والعدالة، التى ارتفعت فى سماء عدد من البلدان العربية عام ٢٠١١، هى الكفيلة حين ترفرف مجددا بتغيير البيئة السياسية – المجتمعية المنتجة للظلم، والقهر، والجهل، والتعصب، والتطرف، ومن ثم إنزال الرايات السود التى يجد حاملوها فى ظلمات هذه البيئة ما يعينهم على التمدد والتوسع.